

"النزاهة" من فن البديع المعنوي بين التعريف والتطبيق

An introduction to "Al Nazaha" (a kind of the art of the speech) and its literary applications

* شمس الحسين ظهير

** أحمد سعيد جان

Abstract:

The variety and difference in natural capabilities of a nation can be observed in their conversational skills. If the mental level of an individual has properly grown up, his power of expression, vocabulary and style of reasoning will be defiantly of high standard as compared to a common man. Similarly, when these skills get a literary shape it become more standardized. "Al Nazaha" is the art of the speech having similarity with satire (هجو) to a level but is different in many aspects with respect to its application, such as purification of plebian words (سوقيانه كلام), reformative critical outlook and broad thinking etc. This article deals with the art of speech (النزاهة) its introduction and utilization in the Arabic and Islamic sources.

Key words: "Al Nazaha", the Satire, Difference, Similarity, Plebian words, Reformative thinking, Islamic Sources

قبل المدخل:

ما زال ولم يزل القرآن الكريم منبعاً لكل نوع من فنون الأدب العربي، وخاصة لفن البلاغة والبيان إذ كان المقصد الرئيسي من نزول القرآن هو التحدي لشعراء العرب الذين كانوا يتفاخرون فيما بينهم ببراعتهم الشعرية وبلاغتهم القريضية، كما في المعلقات السبع التي عجزت عن إتيان مثلها عامة العرب، فأنزل الله كلامه ليخضعهم به؛ وحدّدهم أن يأتوا مثل القرآن ثم عشر آياتٍ ثم آية واحدة حتى لم يجيبوا بتحدٍ واحدٍ منها فقط.

* الباحث علي مستوي الدكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة اسلامية كالج، بشاور.

** الباحث علي مستوي الدكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة اسلامية كالج، بشاور.

وكانت تلك البلاغة القرآنية سبباً لوجود فن مستقل في ما بعد حينما حصلت السيطرة للمسلمين في أدنى أقطار الأرض وأقصاها، وعني الناس بضبط علوم الأدب العربي خدمة للقرآن والسنة النبوية المطهرة كما أنهم اهتموا بتدوين الكتب المختلفة على اختلاف تلك العلوم؛ من بينها كتب البلاغة التي تشكلت بشكل فنٍّ برأسه، وتعيّنت أسسه وفروعه؛ وكان من أحد تلك الفروع النزاهة التي نحن بصدد بيانها في الفقرات الآتية.

أولاً: النزاهة عند أهل اللغة:

نزه: النون والزاء والهاء، كلمة تدل على بُعد في مكان وغيره، ويقال: هذه مكان نزيه، أي: خلاء بعيد من الناس ليس فيه أحد. (1) ومصدره النزاهة كما يقال: تنزه القوم، إذا بُعدوا من الريف إلى البدو. والتنزه: ظلف النفس عن المدانس؛ كقول العرب، فلان نزه النفس ونازه النفس، (2) (يعني: هو يُبعد نفسه عن الأقدار)، ومنه قيل: فلان يتنزه عن الأقدار، ويُتنزه نفسه عنها أي: يباعدها عنها.

والنزاهة: البعد من الشر. وفلان نزيه كريم إذا كان بعيداً من اللؤم. وهو نزيه الخلق. (3) ورجل نزيه الخلق: بعيد عن المطامع الدنيئة. (4) وكذا النزاهة بمعنى البعد عن السوء وترك الشبهات. (5) كل تلك المعاني للنزاهة تصح في غير المرثيات، وأما: معناها في المرثيات فيقال: نزهت: الأرض - بالكسر - تنزه (نُزهة) أي: تزيت بالنبات. وكذا يقولون: خرجنا نتنزه بالنبات في الرياض عندما يتعبون عن مكاسب العيش في اليوم. وقد خالف ابن السكيت (6) غيره من اللغويين في تشريح المعنى حيث هو يقول: ومما يضعه الناس في غير موضعه قولهم: خرجنا نتنزه إذا خرجوا إلى البساتين. قال: وإنما التنزه التباعد عن المياه والأرياف، ويقال للمكان الذي لا شيء فيه ولا أحد: هذا مكان نزيه، أي: خلاء عن كل شيء. (7)

وفي ضوء دراسة الأقوال المتقدمة في تشريح كلمة "نزهة" نصل إلى معنى مشترك وهو البعد، إذ قد لوحظ كون بُعده في تمام المعاني. ونفس المعنى تتطلبه في كل الدلالات البديعية التي نحن بصدد بيانها في الفقرات التالية.

ثانياً: مصطلح "النزاهة" عند الأدباء:

قد عرّف النزاهة غير واحد من الأدباء حسب ما ساع لهم الأمر، وتتقارب كلماتهم في ما بينهم، وتتفق في معنى مشترك وهو البعد عن التنافر. فقال ابن حجة الحموي (8) في كتابه "خزانة الأدب وغاية الأرب" بأن: النزاهة هو نوع غريب تحول سوابق الذوق السليم في حلبة ميدانه، وتغرد سواجع الحشمة على بديع أفنانه، لأنه هجو في الأصل، ولكنه عبارة عن: "الإتيان بألفاظ فيها معنى الهجو الذي إذا سمعته العذراء في خدرها لا تنفر

منه". وهذه عبارة أبو عمرو ابن العلاء (9) لما سئل عن أحسن الهجو فقال:

نزعت لفظي عن فحش وقلت هم عرب وفي حبهم يا غربة الدمم (10)

مثل هذا المعنى يوجد في قول ابن معصوم (11) عند ما يتكلم عن النزاهة، فيقول: "النزاهة ضرب من الهجو، غير أنه يتعين أن يكون بألفاظه منزهة عن الفحش والسخف". (12)

وكذا في تعريف عبد الرحمن الميداني للنزاهة: "هي خلوص ألفاظ الهجاء والدم من الفحش". (13)

وقد فصل ابن بسام (14) في أنواع الهجاء وجعل النزاهة من أقسامها، وعدّ النوع من هجاء طبقة الأشراف فقال: "الهجاء ينقسم قسمين: قسم يسمونه هجو الأشراف، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مقذعاً ولا هجراً مستبشعاً، وهو طأطأ قديماً من الأوائل، وتل عرش القبائل، إنما هو توبيخ وتعيير، وتقديم وتأخير". (15)

ثم عدّ جريراً من طبقة الهجائين الفاضحين لا من الأشراف، وجعل هجاءه قسماً ثانياً من هذا القبيل. (16) وخير ما قيل فيه هو هذا القول للراعي: "هجوت جماعة من الشعراء، وما قلت فيهم ما تستحي العذراء أن تنشده في خدرها". (17)

ثالثاً: أمثلة النزاهة في القرآن الكريم:

من المعلوم أن القرآن قد عبّر عما أراد بألفاظ رشيقة ناعمة طاهرة، ولا يوجد فيه ما يدلّ على عوراة يلزم بها الستر، مثل قول الله عز وجلّ في جماع الرجال بنسائهنّ، فقال: "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم". (18) نحن نرى انتقاء الكلمات للتعبير عن مجامعتهنّ بأنّها في داخل الإطار الخلفي مع وضوحها كاملة في المعنى ولا غبار عليه. ولذا قال الحافظ السيوطي: جميع هجاء القرآن من نوع النزاهة، (19) لأن الله لا يتكلم بكلام الناس؛ لا بألفاظهم ولا بعبارتهم، بل هو ربنا وهو منزّه من كل نوع من النقصان.

المثال الأول: في قول الله عز وجلّ بشأن الذين يُدْعَوْنَ إلى الله ورسوله ليُحْكُمَ بَيْنَهُمْ فَيُعْرِضُونَ حيناً لا يكون لهم الحقُّ في الخصومة:

{أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَلَّا يَأْتِيَهُمُ الظَّالِمُونَ} (20)

التعبير بألفاظ الدم المخبر عنها في كلام الآية، أنت منزّهة عما يقع في غير هذا القسم من الفحش في الهجاء، والمراد بالمرض هنا هو إبطان الكفر. (21)

المثال الثاني: هو أن الله عز خطب الخواص بكلمات عامة الدلالة، ليكون التعيين شاملاً لكل من يوجد فيه

القبح أو الخصلة المذكورة في القرآن، مثله قول ربنا الرحمن في حق الوليد بن المغيرة الذي كانوا يستنكف عن الإيمان وينكره على أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام فيقول:

{وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عَثُلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تَتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطومِ} (22)

يُلاحظُ أنَّ هذا الهجاء في صورة النزاهة خالية من كل فُحش.

المثال الثالث: هو ما جاء في سورة المسد من ذم أبي لهب وامراته بما كسبا في مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال الله عز وجل:

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} (23)

قد نلاحظ أن الآية الكريمة تدلنا على كون أبي لهب ذا حسن وجمال ومالٍ ووُلدٍ، ومع ذلك لم تنفعه كل تلك المكاسب في تسريحه عن عذاب الله كما لم ينفع زوجته جمالها وحسن عنقها الجميل الأبيض إذا كلاهما خالفا الرسول عليه السلام، فهما جديران بنوع عذاب يشبه بهيئتهما وشكلهما. رغماً من الدراسات كلها لم نعثر على وجود الهجاء اللاذع الذي يشبه هجاء أهل الأرض بعضهم بعضاً. وجميع الصور الهجائية في القرآن الكريم قد تحلّت بهذا النوع من النزاهة؛ يفهم منها المعنى المراد مصاحبة بتطبيقها على كل من توجد فيه المقابح التي ذمها الله.

رابعاً: أمثلة النزاهة في أشعار العرب:

انطلاقاً بقول ابن بسام في تعريف النزاهة بكونها نوعاً من هجاء الطبقة الأشرافية، قد صدر في قول بعض شعراء العرب الشهيرة الذين لهم أيدي الطويلة في كل نوع من الشعر، فهذا أبو تمام يقول بنفس المنهج:

بني فعيلة ما بالي وبالكم وفي البلاد مناديح ومضطرب
لحاجة لي فيكم ليس يشبهها إلا لجاجكم في أنكم عرب(24)

ومثله قول أوس هذا:

إذا ناقة شدت برحل وتمرق إلى حسن بعدي فضلّ ضلالها(25)

رغم كون جرير من الفاضحين قد يوجد لديه هذا القسم في الهجاء، وهو بيته هذا:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعب بلغت ولا كلابا(26)

وقال ابن الأثير(27) حول بيتي جرير وأوس المذكورين بمقاله فقال:

"وبين المذهبين تناسب، إلا أن بيت جرير أهجي، لما فيه من التفصيل". (28)
 وسلك أبو تمام الشاعر نفس المذهب عندما قال في هجاء صالح بن عبد الملك الهاشمي:
 يا أكرم الناس آباء ومفتخرا وألأم الناس مبلوا ومختبرا
 تغضي الرجال إذا آباؤه ذكروا لهم ويغضي لهم أن فعله ذكرا (29)
 ويشابه الموضوع بيت الخوارزمي في الصحاح بن عباد:

لا تحمدن ابن عباد وإن هطلت كفاه يوما ولا تدممه إن حرما
 فإنها خطرات من وساوسه يعطي ولا يمنع لا بخلا ولا كرما (30)
 ومن القبيل هذه قول يوسف بن حمويه (31)
 إذا ما جئت أحمد مستميحا فلا يغرك منظره الأنيق
 له لطف وليس لديه عرف كبارقة تروق ولا تريق
 فما يخشى العدو له بعيدا كما بالوعد لا يثق الصديق (32)

خامساً: بعض حكايات العرب التي وردت فيها النزاهة:

النزاهة كما تكون في القرآن والشعر فكذا توجد في بعض الحكايات الواردة بين العرب، ولو لم يخلُ هذه الحكايات من كونها واردة في الأشعار، وتشكل أن تتصير في حيز الشعر إذ غلب القريض قديماً وحديثاً على حياة العرب. وفيما يلي نتعرض لبعض الأمثلة من الحكايات:
 يحكى أن الزبرقان بن بدر استمدَّ عمر بن الخطاب رضی الله عنه، على الخطيئة وقال: إنه هجاني بهذا البيت.

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكأسي (33)

فقال له عمر: أما ترضي أن تكون طاعما كاسيا. قال: والله لولا الإسلام لقتلته. قال: لا أعلمه هجاء ولكن أدع إلى ابن القريعة يعني حسان بن ثابت رضي الله عنه. فحكّم الحسان في المخاصمة، فأجاب الحسان: ما هجاء ولكن سلح عليه، فقصد عمر بعقابه، فاستعطف الخطيئة إياه قائلاً:

ماذا تقول لأفراخ بذي مخ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر؟
 ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
 ما آثروك بما إذ قدّموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

فلما قرأه عمر رضي الله عنه رقى له، وبكى، وخلقى سبيله.(34)

وحكاية: أن عبد الملك بن مروان قال يوماً: أحسابكم يا بني أمية؛ فما أود أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس وإن الأعشى قال في جاراته:

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى بيتن خمائصا(35)

ولما سمع علقمة بن علاثة هذا البيت بكى وقال: أنفعل هذا نحن بجارتنا؟ ودعا عليه. فما ظنك بشيء يبكي علقمة بن علاثة؟ وقد كان عندهم إذا ضرب بالسيف ما قال حس،(36) ورغم كونها أشداء في الحرب ما كادوا يصبرون على مثل هذه الهجاء المتمثلة في زيّ النزاهة.

سادسا: ما وصلنا إليه:

في ضوء ما مرّ نصل إلى القول بفرق رقيق بين نوعي الهجاء والنزاهة، ولكل منهما دلالات في الأدب، ثم للنزاهة منزلة لا يعلمها إلا أصحاب الأحاسيس الرقيقة مثل حكاية الزرقان بن بدر ومحاسبة عبد الملك ابن مروان. ولكل نوع أهله يتداولون به، فالمتسوقين يأتون بالهجاء عندما تزدي أعينهم رجلاً، والأشراف يستخدمون النزاهة لاختيارهم التطهر والتنزه في أمور حياتهم، وهم يبعدون كل البعد عما يشين طبائعهم أو يقدرح في خلقتهم.

الحواشي

- 1: مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، المكتبة العصرية، بيروت، ط5، 1999م، ص 308.
- 2: جمهرة اللغة، ابن دريد، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م، ج2، ص831.
- 3: المصدر السابق، ص308.
- 4: مقاييس اللغة، ابن فارس، دار الفكر، لاط، 1979م، ج5، ص417.
- 5: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، مصر، لاط، لات، ج2، ص915.
- 6: يعقوب بن إسحاق، أبو يوسف، ابن السكيت: إمام في اللغة والأدب. أصله من خوزستان. تعلم ببغداد. واتصل بالمتوكل العباسي، فعهد إليه بتأديب أولاده، وجعله في عداد ندمائه، ثم قتله، لسبب مجهول. له كتب كثيرة، منها؛ إصلاح المنطق، وسرقات الشعراء، والأمثال، والأضداد وغيرها. توفي سنة 244هـ ببغداد، وكانت مولده سنة 186هـ. [وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، دار صادر، بيروت، ط1، 1994م، ج2، ص309؛ الفهرست، ابن النديم، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1997م، ص72، 73؛ الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002م، ج8، ص195]
- 7: مختار الصحاح، ص308. وانتقد هذا القول صاحب القاموس المحيط فقال: "واستعمال التنزه في الخروج إلى البساتين والخضر والرياض غلط قبيح". [انظر: القاموس المحيط، ج1، ص1254] وقد ذكرنا أنه لا خطأ في استعماله في هذا الموضوع لأن المعنى المشترك يوجد في تمام المواضع التي استعملت فيها هذه الكلمة.
- 8: أبو بكر بن علي تقي الدين ابن حجة: إمام أهل الأدب في عصره. وكان شاعرا جيد الإنشاء. من أهل حماة بسورية. ولد ونشأ ومات فيها. زار القاهرة والتقى بعلمائها واتصل بملوكها. وكان طويل النفس في النظم والنثر، حسن الأخلاق والمروءة، فيه شيء من الزهو والإعجاب. له كتب كثيرة، منها: خزانة الأدب وغاية الأرب، وثمرات الأوراق وغيرها. توفي سنة 837هـ. [الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، السخاوي، مكتبة الحياة، بيروت، لاط، لات، ج11، ص53؛ الأعلام، الزركلي، ج2، ص67]
- 9: زَيْنَ بن عَمَّار التميمي المازني البصري، أبو عمرو، ويلقب أبوه بالعلاء: من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة. ولد بمكة، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة. قال الفرزدق: "ما زلت أغلق أبوابا وأفتحها حتى أتيت أبا عمرو ابن عمار. وقال أبو عبيدة عنه: كان أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر، وكانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية. توفي سنة 154هـ. [انظر: الوافي بالوفيات، ج1، ص386؛ فوات الوفيات، الكنتي، ج1، ص164؛ الأعلام، ج3، ص41]
- 10: خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي، دار البحار، بيروت، لاط، 2004م، ج1، ص172.
- 11: علي بن أحمد بن محمد مَعْصُوم الحسيني الحسيني، المعروف بعلي خان بن ميرزا أحمد، الشهير بابن معصوم: عالم بالأدب والشعر والتراجم. شيرازي الأصل. ولد بمكة، وأقام مدة بالهند، وتوفي بشيراز. له كتب كثيرة، منها: "سلافة العصر في محاسن أعيان العصر" و "رياض السالكين" وأنوار الربيع في أنواع البديع وغيرها. توفي سنة 1119هـ. [انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، لاط، لات، ج1، ص428؛ الأعلام، الزركلي، ج4، ص259]
- 12: أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم، ص115.
- 13: البلاغة العربية، عبد الرحمن الدمشقي، دار القلم، دمشق، ط1، 1996م، ج2، ص471.

- 14: علي بن بسام الشنتريبي الأندلسي، أبو الحسن: أديب، من الكتاب الوزراء. نسبته إلى شنترين. اشتهر بكتابه "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة". توفي سنة 542هـ. [انظر: المغرب في حلى المغرب، أبو الحسن الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1955م، ج1، ص417؛ الأعلام، ج4، ص266]
- 15: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، الدار العربية، تونس، ط1، 1981م، ج1، ص544.
- 16: انظر: نفس المصدر، ج1، ص546.
- 17: نفس المصدر والصفحة-
- 18: سورة البقرة 2: 223.
- 19: أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم، ص115.
- 20: سورة النور 24: 50.
- 21: الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري، مؤسسة سجل العرب، لاط، 1985م، ج2، ص273.
- 22: سورة القلم 68: 10 - 16.
- 23: سورة المسد 111: 1 - 5.
- 24: تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر، ابن أبي الاصبع، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، لاط، لات، ص585.
- 25: كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشككة الإعراب، أبو على الفارسي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1988م، ص238.
- 26: يقال: كان رجل من نمير، إذا قيل له: من أنت؟ قال: نميري، إِدْلالاً بنسبه واقتخاراً بمنصبه حتى قال جرير: فغض الطرف إنك من نمير. وأثبت له. [انظر: خزانة الأدب ولب لسان العرب، للبغدادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997م، ج1، ص74]
- 27: هو: إسماعيل بن أحمد بن سعيد، عماد الدين ابن تاج الدين ابن الأثير: كاتب، من العلماء بالأدب، شافعي، حلي الأصل. ولي كتابة الدرج بالديار المصرية بعد أبيه مدة وتركها تورعا. وقتل بظاهر حمص في وقعة مع التتار. توفي سنة 699هـ. [إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد، مطبعة السنة المحمدية، لاط، لات، ج1، ص43؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، دار الكتب، مصر، لاط، لات، ج8، ص890؛ الأعلام، ج1، ص309]
- 28: أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم، ص115.
- 29: الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين، الخالديان، وزارة الثقافة، السورية، لاط، 1995م، ص42.
- 30: الذخائر والعبقريات، عبد الرحمن البرقوقي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، لاط، لات، ج1، ص66.
- 31: يوسف بن محمد بن عمر بن علي بن محمد ابن حمويه الجويني، الصاحب أبو المظفر: قائد، من الأدباء من أسرة أصلها من "جوين" بنيسابور. ولد وتعلم بدمشق. كان رئيسا محتشما، سيدا معظما، ذا عقل ورأي ودهاء وشجاعة وكرم. توفي سنة 647هـ. [شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1986م، ج5، ص238-239؛ الأعلام، ج8، ص249]

- 32: ديوان المعاني، أبو هلال العسكري، دار الجيل، بيروت، لاط، لات، ج 1، ص 199.
- 33: انظر: ديوانه، ص 284، لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، ط 3، 1994م، ج 10، ص 108؛ 10/108؛ الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، لاط، 2003م، ج 1، ص 315.
- 34: نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط 1، 2003م، ج 3، ص 298.
- 35: انظر: ديوانه، ص 109.
- 36: نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب، المقرئ التلمساني، دار صادر، بيروت، ط 1، 1968م، ج 2، ص 498.